[٣٥١ – عن أبي ذر ﵁: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: "عدو الله" وليس كذلك، إلا حار عليه).

كذا عند مسلم، وللبخاري نحوه].

ذكر الإمام الحافظ – رحمه الله – هذا الحديث الشريف عن أبي ذر – رضي الله عنه وأرضاه – في هذه الثلاث المنهيات التي نهى عنها رسول الله ﷺ، وهي أمور عظيمة منها: أن يتبرأ الإنسان من والده فينتسب لغير أبيه وهو يعلمه، ومنها: أن يدعي ما ليس له. ومنها أن يقول للرجل: "يا عدو الله" أو "يا كافر" وهو ليس كذلك، فترجع – والعياذ بالله – عليه كلمته.

اشتمل هذا الحديث الشريف على الجملة الأولى وهي: نفي النسب، ونظرًا لأن الباب يختص باللعان، واللعان يقوم على نفي النسب حينما يتبرأ الزوج من حمل زوجته، وقد ذكرنا صور التبري والنفي، فإذا كان الأمر كذلك: فإن ذكر هذا الحديث فيه نوع من الوعيد والتخويف والتهديد أن يجرؤ الإنسان على التلاعب بنسبه أو نسب ذريته، فقد حذر ﷺ الولد أن ينتفي من نسبه لأبيه، وهذا يتضمن تحذير الأب أن ينفي ولده ويتبرأ من ولده ويقول: هذا الولد ليس بولدي! فنظرً لاشتمال الحديث على هذا المعنى، ناسب أن يعتني به المصنف – رحمه الله – في هذا الباب، وكان أئمة السلف والتابعون لهم بإحسان – رحمهم الله برحمته الواسعة – إذا بينوا أحكام الشريعة: ذكروا ما ورد في كتاب الله وسنة النبي ﷺ في التخويف والتهديد من مخالفة شرع الله ﷻ، وهذا يدعو الناس إلى المتابعة وإلى التسليم وإلى العمل بالنصوص الشرعية؛ لأن من شأن المؤمن أن يخاف من الله ﷻ، وإذا سمع بمثل هذا الوعيد الشديد رجف قلبه من خشية الله، وأصابته الخشية التي تحول بينه وبين حدود الله.

يقول المصنف - رحمه الله -: **[عن أبي ذر - رضي الله عنه وأرضاه -]** أبو ذر جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفار، وكانت قبيلته غفار من القبائل التي يحبها رسول الله ﷺ ويدعو لها؛ لأنها سبقت إلى الإسلام، ولما جاءها أبو ذر - رضي الله عنه وأرضاه - من عند رسول الله ﷺ بالإسلام والتوحيد قبلته ورضيته، ولذلك قال ﷺ - كما في الصحيح -: (أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، وجهينة ومزينة موالي الله ورسوله).

قال الإمام الحافظ أبو نعيم عن هذا الصحابي الجليل: "العابد الزهيد القانت الفريد، رابع الإسلام ورافض الأصنام، خدم الرسول وتعلم الأصول، حفظ العهود والوصايا وصبر على المحن والرزايا". وقال عنه الإمام الحافظ الذهبي - رحمه الله -: كان رأسًا في الزهد والصبر والصدق والعلم والعمل، قوالًا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم".

أبو ذر كان ربع الإسلام - رضي الله عنه وأرضاه -، رابع أربعة ما كان على وجه الأرض مسلم غيرهم، فكان من السابقين الأولين إلى قبول الدين، وهو أحد القلائل الذين لم يسجدوا لصنم لا في جاهلية ولا في إسلام، فبرأه الله ﷻ من الشرك والرجس وعبادة الأوثان، وذكر الأئمة والحفاظ في ترجمته: أنه تأله في الجاهلية، وكان يوحد الله ﷻ حتى بلغه خبر النبي ﷺ، فأرسل أخاه لكي يستكشف له حال رسول الله ﷺ، فقدم على رسول الله ﷺ بمكة وعاش معه أيامًا، ثم رجع إلى أبي ذر، وقال: ما وراءك؟ قال: رأيت رجلًا يأمر بالخير وينهى عن الشر. قال: ما أتيتني بشيء! فانطلق - رضي الله عنه وأرضاه - حتى وقف على رسول الله ﷺ فعرض عليه التوحيد وشهادة الإسلام، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فتهلهل وجه رسول الله ﷺ وسر به - كما جاء في الرواية - سرورًا عظيمًا - صلوات الله وسلامه عليه -. وسأل رسول الله ﷺ أن يصدع بكلمة الحق فنبهه النبي ﷺ وحذره، فما كان منه إلا أن خرج ووقف على قريش - موقف صدق لا كذب فيه، وحق لا باطل فيه - وقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" فصاحوا: صبأت! ثم قاموا عليه وضربوه وآذوه وأدموه حتى فكه العباس - رضي الله عنه وأرضاه - منهم. ومكث ﷺ بمكة، ثم

إن النبي ﷺ أمره أن يرجع إلى قومه وأن يكون فيهم حتى يأتي أمر الله، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، خرج أبو ذر رضي الله عنه - بعد أن عاش مع قومه يعلمهم ويدعوهم إلى الإسلام والخير - خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجرًا، وصحب رسول الله ﷺ نعم الصحبة فكانت نعم الصحبة من أبي ذر رضي الله عنه، كان مع رسول الله ﷺ وكان يحبه ويدنيه، وربما سار مع رسول الله ﷺ وحيدًا فريدًا فأوصاه الوصايا وعهد إليه بالعهود، ففي صحيح مسلم - رحمه الله -: عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بالبقيع - يعني بقيع الغرقد - فقال: (يا أبا ذر أترى أحدًا؟) قال: فنظرت إلى الشمس، وكنت أظن أن رسول الله ﷺ سيبعثني إلى حاجة فقلت: نعم يا رسول الله. فقال: (ما أحب لو أن لي مثل أحد ذهبًا تمسي علي ثالثة أو رابعة وعندي منه دينار أو درهم). فكثير من الأحاديث التي كان يلقيها رسول الله ﷺ على هذا الصحابي كانت تناسبه في الزهد والخروج من الدنيا والتعفف والصبر على شدتها ومؤونتها، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى أحوال صحابته.

وفي الحديث الصحيح: أنه لما خرج - عليه الصلاة والسلام - إلى غزوة تبوك وتخلف من تخلف عنه، وكان المنافقون يتخلفون أرسالًا، فيدعي بعضهم أنه تعطل حتى إذا مضى عنه الجيش رجع إلى المدينة خائبًا خاسرًا، فتعطل أبو ذر رضي الله عنه وانحبس به بعيره، فلما تعطل به: حمل متاعه على ظهره في شدة الحر والقر ومضى - رضي الله عنه وأرضاه -. وجلسوا مع النبي ﷺ ويقولون: تخلف فلان، تخلف فلان. ثم ذكروا أبا ذر، فلما مضى رسول الله ﷺ وانطلق أبو ذر وراءه يمشي على قدميه: رآه النبي ﷺ والصحابة في شدة وهيج الشمس وهم يقولون: فلان وفلان. فقال ﷺ: (كن أبا ذر) ثم قال - صلوات الله وسلامه وبركاته عليه -: (رحم الله أبا ذر، يعيش وحيدًا ويموت وحيدًا ويبعث يوم القيامة وحيدًا). وصدقت فيه معجزة النبي ﷺ: فقد عاش وحيدًا عن الناس، حافظًا لوصية رسول الله ﷺ، صادق اللهجة، صادق القول والعمل، قال ﷺ فيه: (ما أظلت الغبراء ولا أقلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر) رضي الله عنه وأرضاه. فتعفف عن هذه الدنيا، وكان يرى أنه لا تغيب الشمس عن أحد وعنده مال زائد عن قوته وحاجته، وهذا رأيه رضي الله عنه وقد خالفه في ذلك الخلفاء الراشدون، ولكن هذا فهمه رضي الله عنه - وهو قول مرجوح -، فكان على التعفف والزهد من هذه الدنيا:

لا يحتبس بعد طعامه وقوته في بيته شيئًا، وتزوج امرأة كانت من أضعف الناس، سحماء غبراء لا تعتني بنفسها، ما ولدت له ولدًا إلا توفي! فقالوا له: يا أبا ذر، هلا تزوجت الحسناء الجميلة البيضاء؟! فقال ﷺ: "لأن أتزوج امرأة تضعني أحب إلي من أن أتزوج امرأة ترفعني" وهذا من زهده – رضي الله عنه وأرضاه –. وقيل له: ما هذه الذرية كلما ولد لك الولد مضى وانقضى؟! فقال ﷺ: "وما عسى أن يكون؟! أخذهم من دار الفناء وادخرهم لي في دار البقاء. ثم إنه – رضي الله عنه وأرضاه – حضر فتح بيت المقدس – أعاده الله على الإسلام والمسلمين –، فكان ﷺ مع عمر خليفة المسلمين وبقي في الشام، وكان شديدًا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، واشتد أمره حتى طلب منه عثمان أن يأتي إليه في المدينة، فلما أتى إلى المدينة وتناظر مع الصحابة في مسألة الكنز المشهورة: استأذن عثمان بعد ذلك، كما في صحيح البخاري: أنه لما دخل المدينة ووجد البناء قد بلغ سلعًا: حدث بالحديث عن رسول الله ﷺ: أنه عهد إليه إذا بلغ البناء سلعًا أن يخرج من المدينة، وهذا خاص في أبي ذر؛ لأنه كان شديدًا في الحق، وكان زاهدًا متعففًا، وعلم النبي ﷺ بتعليم الله ﷻ له ما يكون فأوصاه أن يخرج، وهذا – كما نص عليه الأئمة – ليس عامًّا، فالمدينة فضلها وفضل سكناها لا يخفى على أحد. ثم إنه ﷺ لما رأى ذلك: استأذن عثمان ﷺ أن ينتقل إلى الربذة، فعاش في الربذة – كانت الربذة حمى لإبل الصدقة بجهة الحناكية وتبعد عن المدينة ما يقارب تسعين كيلو متر – فاحتبس فيها ﷺ ومعه زوجته ومعه غلامه، حتى حضرته المنية – رضي الله عنه وأرضاه – وما عنده أحد من الناس، وصدقت فيه معجزة النبي ﷺ: أنه يعيش وحيدًا وأنه يموت وحيدًا. وقال لامرأته وغلامه: "إذا أنا مت فاغسلاني وكفِّناني، ثم أظهرا السرير على الطريق وقولا: هذا أبو ذر. ففعلا به ذلك، فمر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه – وكان يريد الحج –، وكان عبدالله يحب أبا ذر حبًّا شديدًا – ولا يعرف الفضل إلا أهله –، فلما رآه بكى وقال: "رحم الله أبا ذر، وصدق رسول الله ﷺ: يعيش وحيدًا ويموت فريدًا" ثم صلى عليه – رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا، وجعل أعالي الفردوس مسكنهم ومثواهم، وجمعنا بهم في جنان النعيم إنه ولي الفضل والتكريم –.

يقول المصنف – رحمه الله –: [**عن أبي ذر – رضي الله عنه وأرضاه – قال: قال رسول الله ﷺ**] في هذا الحديث – كما قدمنا – ثلاث جمل:

الجملة الأولى: [(**من ادعى لغير أبيه وهو يعلمه**)] "ادعى لغير أبيه وهو يعلمه" أي: ينسب نفسه إلى غير أبيه وهو يعلم أن أباه فلان، وعلى هذا: يكون مزورًا في نسبته، مغيرًا في حقيقة أمره! [(**من ادعى لغير أبيه**)] في قوله: "أبيه" عموم يشمل أن يدعي لغير أبيه المباشر أو لغير أبيه الأعلى – مثل جده وجد جده –، فهذا الحديث عام يشمل الأب المباشر والأب بواسطة، فمثلًا: لو كان ينتسب إلى عبدالله وأبوه عبدالله، فانتفى من هذا النسب وقال: أنا ابن محمد! فحينئذ قد انتسب إلى غير أبيه المباشر. وقد ينتسب إلى غير أبيه غير المباشر، كأن يكون والده عبدالله وجده محمد فينتسب إلى أحمد. وهذا يجعل الحكم شاملًا حتى للقبائل: أن يكون من قبيلة فينتسب إلى غيرها، وإذا غير في قبيلته وغير في فخذه وغير في نسبه وهو يعلم أنه ليس بولد لهذه القبيلة التي انتسب إليها زورًا وبهتانًا، وأن قبيلته بنو فلان أو أن قومه بنو فلان: فإنه يشمله الحديث أيضًا، ثم إن النبي ﷺ عمم في هذا الحديث.

وقوله: [(**إلا كفر**)] أصل الكفر في لغة العرب: الستر، يقال: "كفر الشيء" إذا ستره، ومنه سمي الباذر للبذر والمزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر، وسمي الغمام كافرًا؛ لأنه يستر النجوم، وأصل الكُفر الكَفْر لما كان الكافر – والعياذ بالله – يجحد نعمة الله عليه كأنه قد غطاها وسترها. وفي هذه الجملة دليل على أن من انتسب إلى غير والده: أنه كافر إذا كان قد استحل ذلك، مثل أن يقول: إنه فلان بن فلان، ويقال له: أنت من بني فلان وأبوك فلان! فيقول: ما فيه شيء هذا! ما فيه شيء أنتسب إلى فلان! فيستحل ما حرم الله، ومن أحل ما حرم الله وحرم ما أحل الله: فقد كذب الله ورسوله! ومن كذب الله ورسوله فقد كفر! فالذي يعتقد حل الانتساب لغير والده ولغير أبيه فإنه كافر بإجماع المسلمين، ولذلك نص العلماء في أبواب الردة على كفر من أنكر المعلوم من الدين بالضرورة؛ لأنه إذا استقر في شرع الله والنصوص في كتاب الله وسنة النبي ﷺ شيء فرده شخص وكذبه وأنكره: فقد

كذب الله ورسوله إذا قامت عليه الحجة في ذلك، وحينئذ يُحكم بكفره. وأما إذا كان ينتسب إلى غير أبيه لخوف أو طمعًا في الدنيا، وهو يعلم أن هذا حرام ويعتقد حرمة ذلك: فإنه آثم شرعًا، ومرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، وعليه أن يخاف من الله ﷻ وأن لا يخاف من الناس، وأن يجعل خوف الله ﷻ أعظم من خوفه من الناس، وخشيته لله ﷻ أشد من خشيته للناس، فإذا فعل ذلك – انتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه لا يجوز ذلك وأنه محرم عليه – فإنه آثم شرعًا، ولا يحكم بكفره.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ارتكاب الكبائر لا يوجب الحكم بكفر صاحبه، ولذلك مرتكب الكبيرة إذا ارتكب الكبيرة نقص إيمانه، وهذا معنى قوله – عليه الصلاة والسلام –: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) وهذا يدل على أن الإيمان يردع الإنسان عن المحرمات، وقد دلت النصوص على أن مرتكب الكبيرة إذا توفي وهو غير تائب منها.. فإنه إذا تاب منها في الدنيا توبة نصوحًا تاب الله عليه، فليس هناك أعظم من الكفر بالله ﷻ – وهو أعظم الذنوب وأشدها – ومع ذلك وعد الله عباده بالمغفرة إذا تابوا منه، والنصوص في الكتاب والسنة متظافرة ودالة على أن من ارتكب الكبائر وتاب منها تاب الله عليه، ولذلك لما عد الله الكبائر قال – تعالى –: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فأخبر ﷻ أنهم بارتكابهم لهذه الكبائر إذا تابوا منها وأقلعوا عنها وتابوا التوبة النصوح أن الله يتوب عليهم، وإذا ثبت هذا فمن تاب تاب الله عليه، وأما من مات وهو مرتكب للكبيرة: فإنه بين أمرين: إما أن يستره الله في الآخرة كما ستره في الدنيا، ويعفو الله عنه في الآخرة ويتجاوز عنه بمحض فضله وبره وإحسانه، وإما أن يعذبه الله ﷻ بعدله. فإما أن يعفو عنه بفضله وإما أن يؤاخذه بعدله. يعفو الله عن مرتكب الكبيرة ويستره إذا ستر نفسه في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) والمجاهر: هو الذي يأتي ويقول: فعلت وفعلت! يستره الله ﷻ

ثم يأتي إلى أصحابه أو إلى أقربائه يتبجح بما حرم الله! بات يستره الله ﷻ فيهتك ستر الله عليه، فهذه شدة في الجرأة على الله ﷻ! فمثل هذا لا يُستر – والعياذ بالله – ويؤاخذ بذنبه إلا إذا تداركه الله برحمته. وأما بالنسبة للذي يستر: فقد صح في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – في حديث النجوى: أن الله يدني عبده يوم القيامة ويلقي عليه كنفه وستره، ويقول: (عبدي، فعلت كذا يوم كذا وكذا؟) فيقول: نعم يا رب. فيقول: (فعلت كذا وكذا يوم كذا؟) فلا يزال يقرره بذنوبه حتى يظن العبد أنه من الهالكين، ثم يقول الله – تعالى –: عبدي، سترتها عليك في الدنيا وها أنا أسترها عليك اليوم) فنسأل الله بعزته وجلاله أن يسترنا بستره في الدنيا وفي الآخرة. فهذا نص صريح واضح الدلالة على تجاوز الله عن عبده وعفوه ومغفرته، وأما من يعذبه الله: فإنه يعذب بالكبائر، ولذلك خيانة الأمانة وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين طريق إلى النار، وقد صح عن رسول الله ﷺ: أنه إذا ضُرب الصراط على متن جهنم تخطفت الكلاليب العصاة والمذنبين، وصح عنه في الصحيح: أنه إذا ضُرب الصراط على متن جهنم قامت الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، أي: أنه لا يجوز الصراط قاطع لرحم، ولا يجوز الصراط خائن لأمانته – والعياذ بالله –. فهذا يدل على أن مرتكب الكبيرة يُطهَّر – وهم الجهنميون –، فيدخلون النار بذنوبهم وسيئاتهم وخطاياهم، وقد يدخل الإنسان بارتكابه الكبائر – من سب الناس وشتمهم والغيبة والنميمة – فتجتمع عليه مظالم الناس وذنوب الناس – كما صح عن رسول الله ﷺ – حتى يصير مفلسًا! فيأتي وقد ضرب هذا وشتم هذا واغتاب هذا، فإذا عظمت عليه ذنوب الناس: أُمر به فطُرح في النار – والعياذ بالله –، فإذا طهر من ذنوبه خلص إلى الجنة بعد ذلك.

فالشاهد من هذا: أن أهل الكبائر مذهب أهل السنة والجماعة فيهم إذا تابوا عن معاصيهم: أنهم على الإسلام، ولذلك يصلى عليهم ويُستغفر لهم ويدعى لهم، وهذا على خلاف ما يعتقده العامة اليوم، فقد يموت شخص مدمن للمخدرات أو فاعل للزنا أو شارب للخمر فيسبونه ويشتمونه ويلعنونه! ومثل هذا من ميت المسلمين أحوج ما يكون لمن يدعو له ويترحم عليه، ويستغفر له ويسأل الله ﷻ أن يتجاوز عنه؛ لأنه قد مضى لعمله، ولذلك نهى النبي ﷺ عن ذكر مساوئ الموتى

وقال: (كفوا عن مساويهم) فيترحم الإنسان على موتى المسلمين. وقد عتب النبي ﷺ على ذلك، ففي الحديث الصحيح: أن ماعزًا ﵁ جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فطهرني. فقال: (ويحك! ارجع فاستغفر الله ثم تب إليه) فرجع غير بعيد، ثم جاء وقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فطهرني. فكرر اعترافه أربع مرات، فقال: (أبك جنون؟) فأُخبر أنه ليس مجنون، قال: (أشربت خمرًا؟) فاستنكهه رجل فلم يجد فيه رائحة الخمر، فلما انطبقت عليه شروط الإقرار الصحيح قال: "أمر به رسول الله ﷺ فرُجم" فلما رجم ﵁ اختلف فيه الصحابة، فقال قوم: هو في النار، وقال بعضهم: هو في الجنة، فخرج النبي ﷺ عليهم وقال: (إنه الآن ينغمس في أنهار الجنة). ثبت – أيضًا – عنه عليه الصلاة والسلام: أنه أقر على الصلاة على المرأة الزانية التي اعترفت، فالأصل في موتى المسلمين المذنبين: أنهم ما دام أنهم ماتوا على الإسلام أن يُترحم عليهم، وأن يُستغفر لهم، وأن لا تذكر مساوئهم ومثالبهم عند أبنائهم وذرياتهم، بل المنبغي العكس: أن يحاول الإنسان أن يجبر خواطرهم، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى فلا يُحمَّل الغير ذنب والده.

في هذا الحديث نص النبي ﷺ على تحريم انتساب الرجل لغير أبيه، مما يدخل في هذا: التلاعب في أوراق الثبوت في زماننا، فالأوراق التي فيها اسم الشخص ونسبه التلاعب فيها سواء كان مما يختص بالإنسان أو بذريته وولده، فتزويرها وتزوير النسبة فيها هذا أمر عظيم؛ لأن هذه الأوراق سيترتب عليها مسائل في القضاء، ومسائل في الأنكحة والزواجات والعقود، وتترتب عليها أحكام شرعية، فيتساهل بعض الناس – أصلحهم الله – في ذلك! وهذا داخل في الوعيد الذي معنا، إذ يتسمى الرجل بغير اسمه وينتسب إلى غير والده ويزور في حقيقة أمره، وهذا كله مخالف للشرع، ولا شك أن صاحبه آثم، فلا يجوز التلاعب بمثل هذه الأمور ولا المعونة عليها.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار)]** "من ادعى ما ليس له" هذا يكون على صور عديدة أشدها وأعظمها: ما يكون في القضاء، وفي الحقوق التي يترتب عليها مصالح عظيمة ادعاؤها زورًا وكذبًا. **[(ادعى ما ليس له)]**

كأن يأتي في القضاء ويرفع إلى قاضي المسلمين أنه يملك أرضًا أو يملك مالًا، أو أن الشيء الفلاني له، أو أنه وقع كذا وأنه له: فهذا من الكذب وادعاء ما ليس له، فإذا ادعى ما ليس له – ولو كان شيئًا قليلًا –: فإنه داخل في هذا الوعيد، ولذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح حينما اختصم الرجلان عند رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ للمدعي: (ألك بينة؟) فقال: ما عندي يا رسول الله. قال: (ليس لك إلا يمينه) قال: يا رسول الله، الرجل فاجر ويحلف ولا يبالي! فقال ﷺ: (من حلف على يمين هو فيها كاذب؛ ليقتطع حق امرئ مسلم: لقي الله وهو عليه غضبان) قالوا: يا رسول الله، وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: (وإن كان قضيبًا من أراك) أي: ولو كان مسواكًا! وهذا لأن الدعوى في القضاء أمرها عظيم، فالقضاء شرعه الله ﷻ، والقضاة نصبوا من أجل العدل وإيصال الحقوق إلى أهلها، وقطع المنازعات والخصومات والوصول إلى الحق، فإذا جاء هذا ولبَّس على القاضي، وأخذ صكًّا شرعيًّا على أمر يكذب فيه: فقد كذب وفجر واتخذ القضاء مطية لمصلحته، ومن هنا قال ﷺ: (إنما أنا بشر مثلكم، وإنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه) ولم يكن الأمر مثل ما ادعى (فإنما أقتطع له قطعة من النار فليستقل أو ليستكثر) فأخذ العلماء من هذاك أن حكم القاضي لا يحرم حلالًا ولا يحل حرامًا، وهذا يدل على أن الأصل الشرعي: أن القضاء ينبغي صيانته عن الخطأ، وبذل كل الأسباب في معونته على الوصول إلى الحق والحقيقة.

فإذا ادعى الإنسان ما ليس له، واتخذ القضاء مطية ووسيلة واتخذ القاضي وصك القاضي حجة لهذه الدعوى الباطلة، ودليلًا على هذه الدعوى الزائفة: فقد ظلم وأساء، فقال ﷺ: [(**ليس منا وليتبوأ مقعده من النار**)] فسيدخل النار وسيعذب فيها، ومقعده من النار على حسب ذنبه ووزره، فمن ظلم الناس فأكل أموالهم واغتصب حقوقهم، وزور على القضاة وأخذ هذه الأموال بالزور والبهتان، وكذب على الناس بالصكوك فقال: أنا صاحب حق وقد قضى القضاء لي! فهذا قد ادعى ما ليس له وقد زور، وحينئذ يكون ذنبه مضاعفًا، ولو ادعى بدون قضاء: كأن يدعي أمام الناس ويقول: أنا مظلوم وهو ظالم، أنا صادق وهو كاذب، وأن الأمر الفلاني كذا وأن فلان فعل كذا. ويدعي أن له

حق عند الناس وليس له حق، مثل: ما يقع من العمال والأجراء والمستضعفين، فقد يفعل هذا من فيه ضعف ويتخذ المسكنة والضعف وسيلة للوصول إلى الأغراض المحرمة، فتنظر الناس إليه ضعيفًا فيقول: أُخذ مالي.. لم آخذ راتبي.. لم آخذ حقي! فيدعي ما ليس له، فهذا داخل في الوعيد. فالشريعة تهذب الناس وتُقوم سلوكهم، وتسدد مناهجهم وأفكارهم من الوقوع في الخطأ والخلل، وتقيهم وتحذرهم من الوقوع في المحرمات وانتهاك حدود الله ﷻ في حقوق المؤمنين والمؤمنات، ألا وإن من أعظم الادعاء وأشده بلاءً وضررًا على العبد - بل وعلى المسلمين عامة -: ادعاء العلم، فادعاء العلم والتعالم من أعظم المصائب التي تفتح على المسلمين باب شر لا خير فيه، وباب ضر لا نفع من ورائه، فإذا استرسل من لا يخاف الله ﷻ وتسور وتسلق على العلم من ليس بأهل، فأصبح يفتي الناس ويعلم الناس ويرشد الناس ويدعو الناس وهو ليس بأهل لذلك: فقد ادعى ما ليس له! قد يدعيه بالقول ويقول: إنه عالم، وأنه قد قرأ على العلماء، وأن العلماء أجازوه، وأنه أُذن له في تعليم الناس وهو كاذب: فليتبوأ مقعده من النار، وليس على هدي النبي ﷺ وسنته. وكذلك قد يدعي بالفعل وهذا من اتباع خطوات الشيطان، فإن الشيطان يستدرج الإنسان من حيث لا يحتسب - والعياذ بالله - فيدعي دون أن يتكلم، فتجده في أول أمره يبدأ بحفظ القرآن والحضور في مجالس العلم، فإذا تعلم شيئًا قليلًا شعر في نفسه أنه شيء، وجاءه من يخدعه أنه عنده العلم، وأنه ينبغي عليه أن يبلي بلاءً حسنًا، وأنه وأنه! فنفخه وزوّر عليه ووضعه في غير مكانه، فاغتر المسكين! فانجرف إلى مسجد فأصبح خطيبًا، ثم بعد أن يبدأ به الشيطان بالتسلق على المقامات التي لا ينبغي لمثله أن يصل إليها إلا بإذن ممن يثق بدينه وأمانته، أو بطلب العلم على وجه صحيح يؤهله لمثل هذا، فإذا بالمسكين بعد فترة أصبح يجد حوله من الناس من يسأله، فإذا به يقول: أنا ما عندي شيء! ثم قليلًا قليلًا حتى يصبح يفتي، أول شيء ينقل كلام العلماء، ثم بعد ذلك يقول: والله يظهر لي ما فيها شيء! ثم: والله ما أرى في هذا بأسًا! ثم يستدرجه الشيطان حتى يأتي يوم من الأيام يرد على العلماء، ويناقش العلماء، ولربما جلس في المجلس صفيق الوجه سليط اللسان، يقاطع العلماء ويعقب عليهم ويداخل عليهم! ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

أي إنسان يدعي في هذا العلم ما ليس له: مُكر به، ومن هنا: يمكر الله بأمثال هؤلاء، ووالله ثم والله إن على الحق نورًا لو أطبق أهل الأرض على أن يطفئوه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وهو نور الحق الذي بوأ الله به أهل الحق والصدق، وعلى الباطل ظلمة لو انكشفت عليه أنوار الدنيا كلها ما أصاب منها ولو قليلًا؛ لأن الله طمس نوره، فليتقدم من يتقدم وليجازف من يجازف وليتهور من يتهور، ولذلك كثر عند الناس اليوم المفتون، وكثر عند الناس المعلمون، وكثر عند الناس المتكلمون، ولكن لا يبقى إلا ما أريد به وجه الله، ولا يبقى إلا الحق ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فكل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر يجعل نصب عينيه الجنة والنار أن يقول على الله وأن يقول على رسوله ﷺ، بمجرد أن تأتي المسألة الشرعية يلجم لسانه، ويخاف من الله أن يتكلم فيها إلا وعنده حجة وعنده دليل قرأه على عالم بين له أن هذا الدليل يدل على ما قال، وإلا مسألة الاستدلال الخوارج والمعتزلة وأئمة الضلال ما فيهم نحلة إلا وعندهم أدلة، ولكن هل هذه الأدلة على نور وبرهان،؟! فمن ادعى ما ليس له في العلم ضل وأَضل، وأخبر رسول الله ﷺ عن حال هؤلاء الأشقياء الأدعياء، فقال – صلوات الله وسلامه عليه –: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور العلماء بعد إذ وعوه، ولكن يقبضه بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا: اتخذ الناس) وانتبه إلى قول النبي ﷺ: (اتخذ الناس) وهذا يدل على الفرق بين العالم الذي اتصل سنده إلى النبي ﷺ وبين العالم الذي اتخذته الناس، كيف تتخذه الناس؟ أولاد عمه وجماعته وقرابته يحيطون به فيبدؤون: الشيخ.. الشيخ.. الشيخ! يرغبونه من نفسه حتى يتقحم نار الله على بصيرة! يحيط به أصحابه وجيرانه وزملاؤه فلا يزالون يمدحونه ويثنون عليه ويكبرون ما يجيئهم به من الكلام – ولو كان خطأً – حتى يكون من الهالكين – والعياذ بالله –. فقال ﷺ: (حتى إذا لم يبق عالمًا: اتخذ الناس) ولذلك تجد كثيرًا من هذا الغثاء حوله من يرجف وحوله من يبلغ قوله، وتجده في الفضائيات وغيرهم ممن يتقحم نار الله على بصيرة في الفتوى، والتعقيب على العلماء واستهجان آراء العلماء والراسخين في العلم، وكل هذا – والعياذ بالله – داخل في هذا الوعيد.

[(**من ادعى ما ليس له**)] وكيف يكون الشيء للإنسان؟ يكون للإنسان إذا كان بحق وأخذه بصدق، وزكاه العدول أن هذا له، قال الإمام مالك – رحمه الله –: "والله، ما أفتيت الناس حتى شهد لي سبعون من أهل العلم أني أهل للفتيا". فهذا يدل على الورع وعلى الخوف من الله ﷻ أن يتكلم الإنسان فيما ليس له، كذلك أن يتكلم الإنسان في شيء لا يحسنه أو فن لا يعلمه، فهذا كله من الدعوى. كذلك أيضًا: مما يدخل في ادعاء الإنسان ما ليس له: أن يدعي صنعة لا يتقنها ولا يضبطها، فالمهندس في هندسته، والطبيب في طبه، والنجار في نجارته، والحداد في حدادته، والعامل في عمله، كل من يقوم على مصلحة من مصالح المسلمين يدعي أنه أهل لها وليس بأهل: فإنه قد دخل في هذا الوعيد [(**فليس منا**)] ليس على هدينا وليس على طريقتنا. قال بعض العلماء: هذه كلمة عظيمة! كان بعض العلماء يقول: أستحب أن لا تُشرح هذه الكلمة للناس، وأن تترك هكذا عُمّية؛ حتى يخاف كل إنسان من قول النبي ﷺ: [(**ليس منا**)].

المسلم يتمنى أن ينسب إلى رسول الله ﷺ، وأن لا يحك رأسه إلا وعنده سنة من سنن النبي ﷺ يتتبع فيها أثره؛ لأنه لا طريق إلى الجنة إلا في طريقه – صلوات الله وسلامه عليه –، فإذا كان الأمر كذلك إذا برسول الله ﷺ يتبرأ منه [(**ليس منا**)] قال بعض العلماء: ليس على هدينا الكامل. وقيل: لا يحشر مع النبي ﷺ يوم القيامة؛ لأن النبي ﷺ تبرأ منه. وهذا يدل على الوعيد الشديد في الجرأة على مثل هذا الأمر، حتى إن الإنسان إذا ادعى في طبه ونجارته فقد غش أمة محمد ﷺ، من ادعى العلم وليس بعالم: فقد خان الأمانة، وخان أمة محمد ﷺ وزوّر عليها وكذب، ومن ادعى أنه طبيب وليس بطبيب: فقد غش أمة محمد ﷺ وكذب، وعرّض أرواح الناس ودماءهم إلى الخطر، وهكذا بالنسبة لكل عامل في عمله. لا يدعي الإنسان إلا شيئًا له، ولا يتكلم إلا بحق ولا يقول إلا بصدق، فإذا كان كذلك: كان على سنة النبي ﷺ، وكان على سيرته وعلى منهجه وعلى طريقته – جعلنا الله وإياكم ذلك الرجل –. [(**وليتبوأ مقعده من النار**)] هذا وعيد شديد بأنه سيعذب يوم القيامة إذا لم يتداركه الله برحمته فيتوب ويرجع ويقلع عن هذا الأمر العظيم، فبين ﷺ حرمة ادعاء الإنسان ما

ليس له، وهذا – أيضًا – يدخل في قضايا اللعان من وجه، ولكن الأشبه: أن المصنف راعى الجملة الأولى.

بقيت الجملة الأخيرة التي اشتملت على تحذير النبي ﷺ من الوقيعة في المسلمين وسبهم واتهامهم بما ليس فيهم، فقد بين رسول الله ﷺ خطر هذا الأمر، وأوقف كل مؤمن ومؤمنة في مقام المحاسبة لنفسه، فإذا أراد أن يتكلم في أحد أو يتهم أحدًا أن يكون على بينة من أمره، وأن اتهام المسلمين وحملهم على ما يوجب الطعن في الدين أمر عظيم الخطر، جليل الضرر، وأن من فعل ذلك تحمل المسؤولية أمام الله، وأن اتهام الناس في دينهم والطعن في الناس في دينهم ليس بالأمر الهين، وإذا تكلم العبد بكلمة في وصف أحد في هذا الأمر فإنما هو شاهد، ومن شهد كُتبت شهادته، كما قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وهذا من خطر اللسان، ولذلك عظم العلماء – رحمهم الله – أمور الجرح، وبينوا أنها عظيمة الخطر عظيمة الضرر، ولا يُحتاج إليها إلا عند الضرورة، ولا يجرح الإنسان إلا عند الموجب، ومن هنا: بين رسول الله ﷺ أن من قال لرجل: "يا كافر"، أو قال له: "يا عدو الله" ولم يكن الرجل كذلك: رجعت الكلمة – والعياذ بالله – على من قالها، لا تذهب هدرًا، ولا تضيع سدىً. وهذا يدل على أنه ينبغي الخوف من الله ﷻ، والحذر من اتهام المسلمين بتكفيرهم أو تبديعهم أو تفسيقهم، أو جرحهم وانتقاصهم – على أي صورة كان هذا الجرح والانتقاص – إذا لم يكن بحق، وإذا لم يكن ببينة.

وقوله: [(**لرجل**)] ليس خاصًا بالرجال بل هو عام شامل للرجال والنساء، وقوله: [(**لرجل**)] نكرة، أيًا كان هذا الرجل: فقيرًا، غنيًا، قويًا، ضعيفًا، عزيزًا، ذليلًا. تأمل كيف خاطب رسول الله ﷺ بهذا اللفظ العام؛ لكي يبين حرمة المسلمين – صغارًا وكبارًا – في أقدارهم ومناصبهم وأحوالهم، ومن هنا: من أراد أن يتكلم في أحد فليتصور – إذا كان فقيرًا – لو كان هذا الأحد أغنى الناس، هل يستطيع أن يقول له هذه الكلمة؟ وإذا كان الإنسان قد علم أن هذا هو منهج السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ فعليه أن يوطن نفسه، وأن يعلم أنه هو المسؤول الأول حينما يتكلم في الناس فيكفرهم

أو يبدعهم أو يفسقهم أو يضللهم، أو ينسبهم إلى أمور تطعن في دينهم أو في أفكارهم أو في مناهجهم، كل هذا عليه أن يقيم نفسه فيه على مقام التقوى والورع. وأي عالم أو داعية أو طالب علم حذر الأمة من هذا الأمر: فقد حذر مما حذر منه رسول الله ﷺ، وأي عالم وأي معلم وأي طالب علم يربي طلابه ويربي عامة الناس وخاصتهم على تقوى الله ﷻ في الكلام في الناس، والحذر من التكفير والتفسيق والتبديع والتجريح والتضليل بدون حق: فقد أصاب المحجة ولزم الحجة، ولا ينبغي أن يصنف على جماعة أو فكر. فعلينا أن نقبل الحق وأن نذعن للحق، وعلينا أن نعلم أن الحق قامت عليه السماوات والأرض، وأن المسلم ينبغي إذا سمع مثل هذه النصوص: أن يخاطب بها نفسه أولًا قبل أي أحد، وأن يلتزم بهذا المنهج، فيتقي الله ﷻ في تكفير الناس وتبديعهم وتفسيقهم، ويحذر كل الحذر أن تزل قدم بعد ثبوتها وأن يذوق السوء، فيحمل أوزار المسلمين وأوزار المؤمنين. ولا ينبغي أن يعلم الجرح الصغار الذين هم حديثو العهد بالجاهلية، الجرح لا يعلمه إلا من علم الورع والخوف من الله ﷻ؛ لأن السلف - رحمهم الله - وأئمة الجرح كانوا آية في الورع والخوف من الله ﷻ، وكان الرجل إذا حُذر من علم الجرح بكى، وقيل له: لعلك أن تتكلم في أقوام حطوا رحالهم في الجنة. فيبكي كما يبكي الطفل؛ لأنه يتهم نفسه بالتقصير، ولا يتهم من يقول له ذلك بأنه عدو للسنة أو عدو للحديث أو عدو للجرح، كلا ولا؛ لأن من يخاف الله ﷻ ينتظر من كل أحد أن يخوفه، ومن يعرف الله ﷻ ينتظر من كل أحد أن يقيمه على صراط الله ﷻ.

إن النبي ﷺ قد حذر الأمة من هذا البلاء؛ لعظم خطره وعظم ضرره، فالكلمة الجارحة لو كانت في أمر من أمور الدنيا آلمت وأضرت من تُكلم فيه، فأنت لا ترضى لأحد أن يقول لك أي كلمة جارحة، ولا يرضى أحد أن يقول له شخص يصفه بالغفلة في أمور الدنيا، فكيف إذا وصفه بالضلال في أمور الدين؟! ومن هنا: لعن الله من تكلم في عرض المؤمنة المحصنة الغافلة: لعنه في الدنيا، ولعنه في الآخرة، وأعد له عذابًا عظيمًا، وفضحه على رؤوس الأشهاد! كما دل على ذلك دليل الكتاب في آية النور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا قذف في

العرض، فما بالك بمن يتهم الناس بالكفر؟! وما بالك بمن يتهم الناس بالبدعة والضلالة؟! نعم، نحرس ثغور الإسلام من المبتدعة ومن الضلال ومن الكفار ومن الفساق ولكن على بينة وعلى بصيرة! إذا تكلم العلماء الأمناء الأتقياء النصحاء الفضلاء الذين ينصحون لأمة محمد ﷺ، وليس الذين لا يزكون إلا من يأتيهم، ولا يحبون إلا من يتزلف لهم أو يتصنع أو يعرفهم، فمن يعرفهم فهو من أهل السنة والجماعة، ومن لا يعرفهم فهو الضال المضل الزائغ! كل هذا من التهور والخروج عن السَنن! علينا أن نتقي الله ﷻ، وأن نعلم أن أعراض المسلمين ليست رخيصة، وأن أفكارهم وأن دينهم وأن الطعن فيهم ليس أمر رخيص وليس بالأمر الهين، وأن النبي ﷺ قد أعذر وأنذر الأمة بأمر ربه – سبحانه –، والله إذا أنذر عباده وأعذر إليهم فلا يلوم العبد إلا نفسه، كل شخص يريد أن يتكلم في أحد عليه أن يقيم نفسه بين الجنة والنار، عليه أن يقيم نفسه مقام هذا الرجل الذي يتكلم فيه، فلو كانت البدعة توجب التكفير ويعتقد كفر صاحبها: عليه أن يعلم أنه إذا نسبها إليه فقد كفره! وكل ضلالة إذا كان يعتقد هلاك صاحبها: فليعلم أنه إذا تلفظ بها في أخيه أنه قد ضلله وقد أهلكه! فإما أن يكون بحق: فيؤجر، وإما أن يكون بباطل: فيحمل على ظهره وزر ذلك، وسيقف بين يدي الله ويسئل عن ذلك. ومن هنا: كان من أعظم ما يكون بلاء على الأمة: مسلك التكفير؛ لأن التكفير إخراج من الملة، واحتقار للمسلمين وانتقاص لهم في أعز شيء يملكونه، وأي مصيبة أعظم من أن يتسلط الظالم الذي لا يبالي بقوله على رجل مؤمن بالله واليوم الآخر فيخرجه من الملة ويخرجه من الدين والله يشهد أنه من أوليائه المسلمين؟! وأي جريمة أعظم من أن يجعله في نار جهنم والله جعله من السعداء الأتقياء من أهل الورع الذين يتقونه ويخافونه؟! تلك هي الكلمات غير المسؤولة، وتلك هي الشرارات المحمومة التي تدمر الأمة وتنخر في كيانها وبين أفرادها، فتشتت شملها وتفرق جمعها، وتمزق محبتها وأواصر الأخوة بينها، فلا تجمع شملًا، ولا تؤلف قلبًا، وإنما تحدث بين المسلمين السوء والشقاق! وعندها لا يبالي الله بهذه الأمة في أي أوديتها هلكت.

أعراض المسلمين ليس بالهينة، بل في الحديث الصحيح: أن الله – تعالى – يقول: (ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن: يكره الموت وأكره مساءته) وأي سوء أعظم

يساء به الإنسان في دينه؟! فالرجل يختار أن يُقتل وأن يسفك دمه ولا ينسب إلى كفر ولا إلى ضلالة ولا إلى بدعة وفسق، ويقول: ليقتلني الناس ولا يتهموني! ثم يعظم الأمر أكثر إذا كان في أهل العلم الذين هم الأمناء على الدين وعلى الشريعة؛ لأن الطعن في هؤلاء منع للناس من علمهم ومنع للناس من الإفادة منهم، واعتداء عليهم فيما نصبهم الله ﷻ من تعليم الناس وإرشادهم، ولذلك بين العلماء أن القاضي والمفتي إذا أوذي فأذيته أذية للشرع – إذا أوذي بغير حق –، ومن هنا: وجب على كل مسلم أن يحذر، ولا يقتصر الأمر على أن يقول الشخص: فلان ضال، فلان زائغ، بل يشمل – أيضًا – من يحمل هذه الأفكار، فتجده يقول: والله، سمعت يقولون في الشيخ فلان، أو يقولون في طالب العلم فلان، أو في المدرس الفلاني. وقد يكون محفظًا للقرآن، وقد يكون من أهل القرآن الذين هم من خيار هذه الأمة وصفوتها فيجرّح ويثلب ويطعن فيه بغير حق!

وعلى كل حال: الكلمة إذا خرجت لن تعود، وإذا خرجت فهي في ديوان يراها الإنسان بين عينيه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ليتكلم من تكلم فلا يبقى إلا الحق، وليسب من يسب فكل إناء بالذي فيه ينضح، وليجرح من يجرح فالزبد يذهب والجفاء يذهب، وسيبقى ما ينفع الناس فيمكث في الأرض معينًا صافيًا، معينًا عذبًا ينتفع به الناس. فإن كان بحق فإن الله ناصره، وإن كان على هدى فإن الله مظهره، فكل داعية وكل شيخ وكل عالم وكل طالب علم وكل معلم وكل مدرس إذا اتهم بالسوء فليصبر وليتعز برسول الأمة ﷺ، فهذا رسول الهدى ﷺ قد ابتلي من أعداء الإسلام وممن يتسمى بالإسلام، ففي الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام –: أنه لما كان يوم حنين، وكان يوم حنين من أشد الأيام ابتلاء لأصحاب رسول الله ﷺ وخاصة للأنصار، فلما قسم – عليه الصلاة والسلام – الغنائم وأعطى المؤلفة قلوبهم أودية الإبل والغنم، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ – وهو الجهجاه –، وأمسك برداء النبي ﷺ وشده إليه وقال: يا محمد، اعدل اعدل. – قاتله الله! – هذا الذي قال فيه النبي ﷺ: (يخرج من ضئضئ هذا أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم). فقال له: (ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟!). فإذا كان رسول الأمة ﷺ يأتيه من يقول له: اعدل! فما بالك بغيره؟ فكل داعية وكل عالم وكل من سلك مسلك الأنبياء والرسل

سيبتلى بهذا، وكل من جَرح وثلب وذم: فقد ضل عن سواء السبيل، وخرج عن المعنى والدليل؛ لأن الله ﷻ فرض علينا أن نقول الحق وأن نقول الصدق، وأن نجعل هذا الدين معونة لنا على آخرتنا، وليس حظوظًا شخصية للإنسان، وعلى كل إنسان أن لا يزكي نفسه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

بين رسول الله ﷺ أن من قال لرجل: "يا كافر" فأحد أمرين: إما أن يكون كما قال: فقد قال الصدق والحق، وإما أن يكون بخلاف ذلك: فإن الكلمة ترجع إلى من قالها. وهذا يدل على خطر التكفير، والتكفير درجات، وأقصى ما يكون التكفير.. وقبل التكفير دركات – والعياذ بالله – تنتهي بالإنسان إلى هذا الحضيض – والعياذ بالله –، فقد استقر عند أهل العلم – رحمهم الله – أن من لا يحفظ حرمة المسلم، يعني يحتقر المسلم، ودائمًا ينظر للناس لألوانهم، لأحسابهم، لأشكالهم، لغناهم، لفقرهم، لا يقيم للإنسان وزنًا إلا باعتبارات معينة، ضيق العطم، ضيق الأفق، بعيدًا عن التجرد للحق والصواب، فمثل هذا يستدرج – والعياذ بالله – حتى من يتبعه، ولذلك تجد من يكفر وأهل التكفير يجدون من على شاكلتهم، والله ﷻ جعل الذين ظلموا أزواجًا ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ "أزواجهم" يعني: أشكالهم، فهذه الأشكال التي تتفق على معنى تحقير المسلم، يبدأ الشيطان أول ما يبدأ أول شرارة تنتهي بالإنسان إلى أذية أخيه المسلم إلى درجة تكفيره: الاحتقار، أول ما يبدأ الضرر على الإنسان المسلم حينما يكون قلبه محتقرًا للناس، فالذي يحتقر الناس هو الذي يسبهم، ولن تجد أحدًا يسب الناس أو يلعنهم أو يبدعهم أو يفسقهم إلا وهو محتقر لهم، وآفتان تستدرج العبد إلى هذا الضلال والهوى أولهما: الاحتقار، وثانيهما: الغرور، وما من عبد يسلم من الاحتقار والغرور إلا وجدته على أمن وأمان من هذه الفتنة العمياء، يبدأ بالاحتقار.. ومن احتقر الغير هان عليه أن يقع فيه وهان عليه أن يتكلم فيه، ولكن لو تأدب بآداب الشرع، فقرأ نصوص الكتاب والسنة؛ لكي يتعلم من هو المسلم وماذا يعني المسلم، ومن هو المؤمن؛ لكي يعرف ما الذي له وما الذي عليه؛ ليعرف من هو هذا الذي يتكلم فيه، ومن هو حتى يتكلم في الناس وينصب

نفسه حكمًا على أمة محمد ﷺ. لقد وجدنا أناسًا لا يفقه الواحد منهم لو صلى سجود سهوه ومع ذلك يتكلم في أئمة وفي علماء وفي دواوين العلم وفي دعاة أحياءً وأمواتًا! ولربما طعن في أئمة للسلف أطبقت الأمة على جلالة قدرهم وحفظ مكانتهم! ماذا يعني هذا؟ يعني: أنه لم يتأدب بآداب الإسلام. ولذلك قد يهتدي الشخص وعنده أدران من الجاهلية، وقد يهتدي الشخص ولم يدخل الإيمان إلى قلبه الذي يزمه ويمنعه ويحجره ويحول بينه وبين حرمات الله ﷻ، فالإيمان يمنع الإنسان من الوقوع في الخطر والخلل والضرر.

فهذا الحديث يحذر فيه النبي ﷺ من مقالة السوء، يحذر فيه النبي ﷺ من الاسترسال في تكفير الناس، فالاحتقار أول شيء والغرور بالنفس، ولذلك وجدنا أئمة السلف ودواوين العلم - رحمهم الله - أبعد ما يكونون عن احتقار الغير، وكان العالم على درجة من الصلاح والورع والإمامة والفضل في الدين وهو أكثر ما يكون تواضعًا، وأكثر ما يكون توطئة للكنف، ولا يعد نفسه إلا كواحد من أفراد المسلمين، ما شعر أن له مزية على غيره. فلا يحتقر أحد أخاه المسلم، ومن هنا: يقول ﷺ - مبينًا هذه الآفة التي تجر إلى الويلات والآفات - يقول ﷺ: (بحسب امرئ من الشر) معناه: مفتاح الشر كله، كافيه من الشر (بحسب من امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم). وانظر إلى الناس فإذا وجدت قلبك يعظم شخصًا لغير الله ﷻ وفي غير ذات الله ﷻ: فانزع من قلبك، ولا تمسي وتصبح إلا وأنت ترى موازين التقوى في قلبك واضحة المعالم، لا تحتقر مسلمًا. ومن هنا: هذب الكتاب والسنة أخلاق المسلمين، ودائمًا تجد نصوص الكتاب والسنة في حقوق الأخوة تعظمها وتبين أنه لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود ولا غني ولا فقير ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ فعاتب الله نبيه من فوق سبع سماوات لما قال المشركون: اطرد عنك هؤلاء الضعفاء والفقراء. فبين أن الموازين بالتقوى، ولرب أشعث أغبر ذي طمرين.. ولربما ترى طويلب العلم الذي لا يعبأ به لو أقسم على الله لأبره، ولربما دفعت شخصًا أو احتقرت أخًا بجوارك له عند الله منزلة ومكانة، من الذي يشعر هذا الشعور؟ من سمت نفسه وزكت روحه وطهر قلبه،

وعلم أن فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن إذا ظن أنه وأنه وأنه ثم وجد من يجعله أنه، فعند ذلك لا يبالي بأي حد من حدود الله انتهك، ولا بأي حرمة من حرمات الله اقترف!

قال ﷺ: (إذا قال لرجل: يا كافر) وهذه كلمة عظيمة تدل على الخروج من الملة، بين ﷺ أنه إما أن يكون كما قال وإلا حارت، والحور هو: الرجوع، وفي الدعاء المأثور: (وأعوذ بك من الحور بعد الكور) أي: أن يرجع الإنسان – والعياذ بالله – كافرًا بعد أن كان على الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع بعد موته حيًّا، أي: إنكارًا للبعث بعد الموت، وفي هذه العبارة دليل على أن التكفير على غير بينة ولا هدى ولا صواب: أنه دحض مزلة، وأنه يوجب ورود الإنسان الموارد، وقد ذكر بعض العلماء: أن الشخص إذا أصبح من عادته أن يتكلم في الناس وأن يطعن في الناس، قد يبدأ بحق، ثم إذا لم يلزم نفسه الورع، ويشفق على نفسه، ويجعل الأمر لله، وكل يوم يتفقد قلبه في هذا الأمر العظيم: قد ينتهي به الأمر إلى تكفير من ليس بكافر، وتبديع من ليس بمبتدع! وتعرف هذه الأشياء بالأمارات والدلالات والظواهر، ولذلك قد تجد بعضهم لما يتكلم في الأشخاص يسترسل هذا خبيث.. هذا كذا.. هذا كذا.. لا يبالي! – ونسأل الله السلامة والعافية –. المعاصي إذا استرسل فيها الإنسان استرسلت فيه، فاللسان إذا استرسل بالسب والشتم والتكفير والتبديع والتفسيق أصبح – والعياذ بالله – ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يتكلم بالكلمة التي تقشعر منها الأبدان ولا تجد لها أثرًا في نفسه! ولكن إذا وجدت الورع والخوف من الله ﷻ إذا قيل للشخص: فلان فيه.. يقشعر بدنه يقول: أرجو أنه ما يكون كذلك ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فتجد عنده الورع، وعنده الخشية، وعنده زكاة النفس وطهارة النفس، فينبغي أن لا يحتقر الإنسان غيره، هذا بالنسبة لمسألة التكفير.

أيضًا: لا يقتصر الأمر على تكفير الناس، تكفير الناس الذي يجر السوء والبلاء على المسلم، كذلك أيضًا: احتقار الناس، فالبعض لا يمكن أن يعترف بالإنسان أنه مسلم وأنه مطيع إلا إذا كانت لحيته

في صدره أو قصير الثوب، وأما غير ذلك فلا يلتفت إليه ولا يبالي به، ويحتقره وينتقصه وكأنه – والعياذ بالله – لا يعني له من الإسلام شيئًا! وهذا غرور بالطاعة وغرور بالهداية. ينبغي على الإنسان أن يعلم أن السنة والأكمل واتباع النبي ﷺ وهو أمر واجب هذه السمات الظاهرة ولكن ليست هي كل شيء، وليست هي التي يوزن بها الناس، فقد يكون عند الإنسان تقصير في لحيته وفي شكله ولكنه من أتقى الناس في قلبه وابتلاه الله بهذه البلية، قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وكم وجدنا من أناس في ظواهرهم ليست تلك الظواهر، ولكن وجدنا فيهم من الإيمان بالله وحسن المعاملة للناس والصدق والأمانة والخشية لله ﷻ والبراءة والسلامة ما لم نجده من غيرهم! وكم وجدنا من أناس أشكالهم تدل على أنهم صالحون، ولكنهم من أجرأ الناس على سب الناس وشتمهم واحتقارهم وأكل أموالهم وتأخير حقوق العمال ونحو ذلك من الضعفاء والبائسين وأشكالهم في الظاهر كأنها أشكال خير! ومن هنا قال ﷺ: (لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم) لما شرب الخمر قالوا: فلان تقطر لحيته خمرًا! فقال: ((مه! لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم، ما علمته إلا أنه يحب الله ورسوله) مبتلى بشرب الخمر فقالوا – كما في الصحيح – قالوا: هذا الذي تقطر لحيته خمرًا! أي: أنه سكير كثير الشرب للخمر، فيه نوع من الوصف له بحاله السيء. ماذا قال رسول الهدى؟ (لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم) فهذا الظاهر ليس بطيب، وإذا برسول الهدى يأتي إلى الباطن الصالح فيقول: (ما علمته إلا أنه يحب الله ورسوله) وهذا مصداق قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ فإذا رأيت المبتلى دعوت له بالصلاح، وإذا رأيت المبتلى شعرت بنعمة الله عليك وفضل الله لديك، وأشفقت على نفسك وقلت: يا رب، لولا هدايتك ما اهتديت، ولولا حفظك ما تحفظت، ولولا لطفك لكنت من الهالكين. هذا هو المعنى السامي، ثم أخذت بيد أخيك ناصحًا مشفقًا دالًّا له على الخير.

ومن هنا: لا ينبغي احتقار المسلمين، والزلل دائمًا يأتي – كما ذكرنا – من هذه الآفة العظيمة، وعلى كل معلم وكل مدرس وكل موجه وكل مربي وكل والد إذا أراد أن يرى في أبنائه وفي طلابه الخير

فليبدأ بنزع الاحتقار من قلوبهم، أن يعلمهم أن الإسلام يعني شيئًا كثيرًا، وأن المسلم أخو المسلم، وأن الله جعل المسلم مع المسلم كالنفس الواحدة، فقال: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال بعض أئمة التفسير: أي: على إخوانكم. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: إخوانكم. كل هذا تعظيم لمعنى الأخوة، فينبغي غرس هذه المعاني وإحياءها في النفوس، ودلالة أبناء المسلمين وبناتهم على هذا الأصل، وكل من يعلم الناس ويوجههم بمجرد أن يجد في طالبه معنى الاحتقار للغير أو الانتقاص للغير: يردعه ويزجره ويوقفه عند حدود الله ﷻ. ولذلك ثبت في الحديث الصحيح في قصة أبي بكر ﷺ حينما قال الصحابة – بلال وغيره –: ما أخذت سيوف الله من عدو الله. قال ﷺ: (إنك إن أغضبتهم أغضبت ربك) وهم من ضعفاء المسلمين. وقال أبوبكر ﷺ: أتقولون هذا في شيخ من شيوخ قريش؟ وهم – بلال وضعفة المسلمين – قالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله – يعني: أبا سفيان –. فقال ﷺ: (إنك إن أغضبتهم) هذا لأبي بكر ﷺ يقول له: (إنك إن أغضبتهم أغضبت ربك) وهذا في صديق الأمة – رضي الله عنه وأرضاه –. وقد دافع أبوبكر وقال: أتقولون هذا في شيخ من شيوخ قريش؟ ولكن أولئك على أحوالهم في نظرة الناس: أنهم من ضعفة الناس ومن الموالي – كبلال ﷺ ونحوه – ولكنه عند الله بمكان. فلا ينبغي احتقار الناس، ولا ينبغي انتقاص المسلمين، وعلى كل موفق يريد أن يقيم نفسه على المنهج السوي أن يربي في نفسه ذلك، وأن يربي في طلابه ومن يأخذ عنه هذا المعنى؛ نصيحة لله، ونصيحة لرسوله ﷺ، ونصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

وقوله: [(**يا عدو الله**)] والعداوة ضد الولاية، والوصف بعداوة الله ﷻ تهمة عظيمة، ولا يوصف العبد بكونه عدوًّا لله إلا إذا كان عدوًّا لله، عدوًّا لشرعه ودينه، عدوًّا لسنة النبي ﷺ مثل: أن يستهزئ بها أو يستخف بها، أو يستهزئ بمن اتصف بها ولزمها، فهذا من أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، وهكذا إذا كان محاربًا لله ورسوله، محاربًا للمؤمنين، فهذا من أعداء الله ورسوله. فلا يجوز الوصف بالعداوة إلا إذا كان هذا الوصف متحققًا في الشخص الموصوف. وجماع الخير كله في تقوى الله ﷻ،

ومن اتقى الله وقاه، وعلى كل مسلم أن يحرص كل الحرص على أن يتأدب بآداب الإسلام، وأن يعلم علم اليقين أن الله لا ينظر إلى صور الناس ولا إلى ألوانهم ولا إلى أشكالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، وعليه أن يعلم أن الإيمان يفرض عليه أن يحفظ حقوق إخوانه المؤمنين وأن لا يضيعها.

وكذلك أيضًا: تعظم هذه المسؤولية إذا تقلد الإنسان أمانة من أمانات المسلمين، مثل: التعليم والتوجيه والتربية، عليه أن يعلم أن المسؤولية عليه عظيمة، وأن يغرس في نفوس أبناء المسلمين هذه المعاني، وأنه إذا قال ذلك لم يظلم أحدًا، وأنه لم يقل كذبًا، بل قال حقًّا وصدقًا حينما يربي أبناء المسلمين على الورع وعلى الخوف وعلى الخشية؛ حتى تكون أحكامهم صحيحة.

ليس معنى هذا كله أن يُترك أعداء الإسلام يسرحون ويمرحون، وليس معنى هذا كله أن يترك أئمة الضلال وأهل الهوى يضلون عباد الله ﷻ ويفترون على الله ورسوله، كلا ولا! فمن كان من أهل الكفر: وصف بذلك وحُكم عليه بذلك، وقد قال الله – تعالى –: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ فأخبر سبحانه وتعالى بكفرهم، وحينئذ: من ارتكب ما يوجب التكفير فمحكوم بكفره، وهذه نصوص الكتاب والسنة تدل على ذلك، وكذلك أيضًا: من ارتكب ما يوجب وصفه بعداوة الله ورسوله فهو عدو لله ورسوله، وهناك أعداء للإسلام والمسلمين وأعداء لله ورسوله ينبغي كشف عوارهم والدلالة على أخطائهم، وهؤلاء هم الذين ينصح الإنسان لأمة محمد ﷺ بعداوتهم وبتربية أبناء المسلمين على منابذتهم وكراهيتهم، وعدم الرضا بأقوالهم وأفكارهم ومناهجهم، مع بذل كل ما نستطيع لهدايتهم للخير ودلالتهم للطاعة وإنابتهم إلى الله ﷻ، وهذا هو المقصود الأعظم: هداية الناس إلى طاعة الله، حتى إن رسول الله ﷺ قال في الحديث الصحيح: (إني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة) فمن حرص على هداية الناس: فإن هذا سيكثر به سواد أمة محمد ﷺ، وسيكون من وراء ذلك الخير للأمة. والنصيحة توجب كشف عوار هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله ﷺ خاصة إذا تسموا باسم النصيحة، وخاصة إذا تسموا باسم الإسلام، أما من عُرفت منه الديانة والاستقامة

وحصلت منه الزلة: فينبغي مناصحته ومكاشفته ودلالته على الخير ما أمكن، وأن لا يتعجل عليه، كما قال سلمان ﵁: "إنكم تسمعون عن الرجل الزلة فلا تعجلوا عليه لعله أن يراجع نفسه فيرجع إلى ربه". فإذا أخطأ المخطئ وأمكن هدايته ودلالته: فإنه يهدى ويدل إلى الحق، ويؤخذ بيده إلى السبيل الأرشد لعل الله ﷻ أن يجعل في ذلك هدايته. وكما ذكرنا أن كشف عوار أئمة الضلال ببيان أفكارهم ومناهجهم وأخطائهم، وكشف عوارهم خاصة لعامة الأمة، فهؤلاء ضررهم على الأمة عظيم؛ لأنهم يدسون السم في العسل، ومنهم من يتسمى باسم الإسلام، ومنهم من يكتب ويجعل كتابته على ظاهرها نصيحة وشفقة وداخلها السم الذي يؤذي المسلمين في عقائدهم أو يؤذي المسلمين في ديانتهم! فهؤلاء يبين أمرهم ويكشف عوارهم، وعلى العلماء وعلى أئمة العلم وطلاب العلم واجب في هذا، فمثل هؤلاء لا يُسكت عنهم.

وأما من كان من أهل الصلاح والخير وحصلت منه الزلة: فإن علينا أن لا نيأس، وكم من أناس من الدعاة الفضلاء والمشائخ الأتقياء الصلحاء قد تحصل منهم الكلمة، وقد لا يفهمون معناها، وقد يسبق به لسانه، فيؤتى إليه ويقال: قد قلت كذا وكذا وقد يُفهم منه كذا وكذا. فيُنصح له، أما أن تؤخذ هذه الكلمة ويطار بها يمينًا وشمالًا، ثم يُنسب أمثال هؤلاء العلماء - من الماضين ومن الأحياء - ينسبون إلى ما هم منه برآء وهم قد تجردوا لنصيحة الأمة ونفع الأمة! فأمور لا يمكن أن تنطلي على صغار العقول فضلًا عن كبارها أن يقال: أن هذا عدو لله ورسوله! فهذا لا شك أنه من التهور والخروج عن السَنن. وعلى كل إنسان أن يعلم أن الله سائله عما يقول، وليجعل نصب عينيه قول الله - تعالى -: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. وليجعل نصب عينيه - أيضًا - قول النبي ﷺ: (وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم!) [...] .